تجليات تحول المجتمع الأندلسي في شعر الهجاء

د. عبد القادر هني
جامعة الجزائر2

إذا كان الأدب والفن عامة لا يمكن أن يختزل في اعتباره انعكاسا آليا لما يجري في محيطه كما يعتقد القائلون بنظرية الانعكاس، فإن ما يصعب نكرانه هو أن الأدب بوصفه نشاطا من الأنشطة الإنسانية يتلون بمنبت الإنسان، وإن كان هذا التلون لا يصل إلى حد ارتسام الواقع كما هو ودون أدنى تغيير في العمل الأدبي،بحكم أن الواقع لا يحيل فقط على ما هو موجود خارج الذات المبدعة من أشياء وأحياء إنما يحيل أيضا على الواقع الخاص للمبدع سواء أكان هذا الواقع واقعا معيشا أم متخيلا.[1]

من هذا المنطلق فإن الشعر الأندلسي لم يكن ممكنا أن يبقى بمنأى عن التأثر بما جد حوله من ظروف وعن الاستجابة لها، فالمجتمع في الأندلس لم يبق ذلك المجتمع البدوي الذي شب فيه العرب قبل الإسلام وبعده بقليل إنما عرفت الحياة فيه طائفة من التحولات مست بنية المجتمع وتركيبته تغيرت على إثرها علاقة الفرد بالمنظومة الاجتماعية التي تحميه خاصة بعد أن أصبحت السلطة للدولة لا للقبيلة كما كان سائدا في

المجتمع القبلي القديم، وتراجعت طائفة من القيم كان لها اعتبار كبير في المجتمع البدوي، وظهرت قيم أخرى جديدة أفرزها التطور الذي عرفته حياة الناس .

ولما كان شعر الهجاء من أكثر أغراض الشعر العربي اتصالا بالحياة الاجتماعية فإنه ليس بدعا أن يتجاوب الشاعر الأندلسي في هذا الغرض مع ما حصل من تحول في الحياة وفي العلاقات الاجتماعية فيتجه به وجهة غير التي اتجهها في المجتمع البدوي القديم فتتغير نظرته إلى المهجو ويتناول شخصيات وظواهر اجتماعية جديدة لم يكن للمجتمع بها قبل، قبل أن تتعقد فيه الحياة وقبل أن تعاد صياغة العلاقات بين بناه الأساسية وتمتزج عناصره امتزاجا ارتخت معه علاقاتها مع أصولها الأولى بعض الارتخاء . فقد كان من نتائج هذا التغير الاجتماعي أن اتجه فن الهجاء في الأندلس إلى تناول الفرد لا من حيث هو جزء في القبيلة مثلما كان عليه الحال في الهجاء الجاهلي إنما بوصفه فردا مجردا من الروابط القبلية والأسرية، فأصبحت المثالب التي هجي بها متصلة به لا بغيره، سواء أكانت هذه المثالب خِلقية أم خُلقية . وتجدر الإشارة – في هذا السياق - إلى أن تتبع النواقص الخلقية في الشخص مما لم يكن يأبه به الذوق القديم، لأن هذا الصنف من العيوب لم يكن يزري بالمرء في نظر المجتمع وقتذاك، لذلك كان اهتمام شاعرهم متجها إلى سلب المهجو القيم التي كان يعظمها المجتمع البدوي، كالشجاعة، والكرم وصراحة النسب وما إليها مما له علاقة بمروءة الإنسان مثلما استقرت في المنظومة القيمية لهذا المجتمع. وفي هذا المعنى قال قدامة بن جعفر: «إنه متى سلب المهجو

أمورا لا تجانس الفضائل النفسية كان ذلك عيبا في الهجاء مثل أن ينسب إلى أنه قبيح الوجه أو صغير الحجم أو ضئيل الجسم».[2]

وإذا كان النقد لا يخلو من تأثير ما في الأدب، فإنه مع ذلك لم يستطع أن يقف في وجه تيار الحياة المتجددة، فمع تغير الحياة وتطور الأذواق، خرج الهجاء في الشعر العربي عن منظومة القيم المعبرة عن الأذواق المحافظة . فإذا أنعمنا النظر في الشعر الأندلسي، وجدنا مادة هجائية مهمة تناولت الهيئة الخِلقية في الإنسان وما يعتريها من نواقص . وهذا الاتجاه إلى عيوب السحنة في الإنسان، له من غير شك علاقة قوية بما عرفه الذوق من تطور بتأثير العوامل الحضارية والطبيعية التي أرهفته فأصبح يتطير من القبح بقدر هيامه وكلفه بالجمال، لذلك فإن الشاعر إذا ما رام تبكيت خصمه أو السخرية منه، جاءه من هذه الناحية التي يتأذى منها ويكون بها مثارا للتندروالضحك في هذا المجتمع الذي تغيرت فيه مقاييس الجمال عما كانت عليه في مجتمع البداوة . على هذه الشاكلة تناول الهجاء الذي تجاوب مع التطور الذي عرفه المجتمع الأندلسي المثالب الخِلقية في المرء بدافع السخط حينا والتندروالتفكه حينا آخر . وأول مثلبة نتناولها في هذا المجال هي ظاهرة هجاء اللحى والملتحين الذين أصبحوا موضوعا هجائيا مهما عند الشعراء الذين تأثروا بما صاحب الحياة الحديثة المصطخبة من حولهم من قيم اجتماعية وجمالية جديدة. ويبدو أن هؤلاء الذين طالتهم سهام الهجاء من هذه الناحية كانوا لا يعنون بتنظيف لحاهم وأنهم كانوا يعدونها مظهرا من مظاهر الرجولة والورع والوقار. فأبو وهب عبد الوهاب بن عبد الرؤوف كان سناطا لا لحية له وكان، على ما يبدو، يعير

بذلك،فحز ذلك في نفسه فانبرى يسفه اللحية ويهجو أصحابها ويزري بهم، فقد شبههم في طلعتهم بالتيوس وتحدث عن عبث الريح بلحاهم وإمالتها يمنة ويسرة،قال :[3]

ليس بمن ليست له لحية　　بأس إذا حصلته ليسا
وصاحب اللحية مستقبح　　يشبه في طلعته التيسا
إن هبت الريح تلاهت به　　وماست به الريح ميسا

لا يخفى ما في الأبيات من حقد على ذوي اللحى، والدافع إلى هذا الحقد ذاتي يعلله افتقاد الشاع لها،فراح يمسخ أصحابها مسخا شنيعا حتى لا يجدوا فيها مظهرا من مظاهر التباهي والمفاخرة، فأية فضيلة في التيس تدعوه إلى التبجح والتعالي ؟

يبدو أن أصحاب هذه اللحى كانوا يتركونها تطول وتتكثف غير مبالين بها فظهروا بها بمظهر غير لائق تشمئز منه النفوس الكلفة بالجمال وتتأذى به العيون التي تنشد التناسق في كل شيء، فانبرى الشعراء يهجون هذه المناظر المقرفة مظهرين الجوانب القذرة فيها . فعبيديس الكاتب هجا المسمى حجاج من أهل وشقة فقصر هجاءه على وصف لحيته سالكا في ذلك أسلوب السخرية والتهكم من المهجو، فصور لحيته وكأنها غابة ضخمة تمور بصنوف الأنعام والطير . وإمعانا في إبراز الجانب القذر فيها راح يصف ريقه المنحدر عليها، ويبالغ في رسم صورة هذا الريق فيشبهه في غزارته بغزارة ما تجود به السماء من قطر، ثم يدقق النظر أكثر فيرى قملا وبقا يسرح فيها أفواجا . وتبدو هذه الأفواج للمرء وسط الريق السائل كأنها موج البحر، قال :[4]

يا من عليه للعلا تـــاج إني إلى اللحية مـــحـاج
وعندكم في وشقة لحيـــة يحملها المائق حـــجاج
للثغر في جانبها مســـرح فيه من الأنعـــام أزوا ج
ومن صنوف الطير في بعضها بط وســـمـان ودراج
يسيـل من شاربـه فوقهـا سلح غزير القطر تـجـاج
للبق في عثونـــه مكمـــن ومن دبيب القمل أفـواج
إذا مشى تبصر أفواجهـــا كأنها في البحـــر أمـواج
يعقدها في شعـــر وجعائه فهـــو إذا ما شاء صـناج

إن الشاعر، كما هو بين، أبرز لحية مهجوه في صورة مثيرة للتقزز بما يسيل عليها من ريق ويسرح فيها من قمل وبق، ولكنها وإن كانت صورة في منتهى القبح فإنها جميلة من الناحية الفنية، فقد استطاع الشاعر أن يجمع لها من العناصر ما يكشف قذارة حاملها ودناءة نفسه . ويظهره للعيان في أدرئ صورة وأشنع هيئة .

وإذا كان القصد في مثل هذا النموذج هو تبكيت المهجو وشفاء ما بالنفس من حنق عليه،فإن الغرض من هذا الصنف من الهجاء كان أحيانا مجرد التندر والتفكه بقصد التبسط والمداعبة . وليس أمرا غريبا أن تأخذ النادرة والفاكهة في الهجاء مكانها في مجتمع أصاب حظا طيبا من النعيم وتوافر لبعض فئاته فراغ كان من غير شك يملأ بما يطرد الملل عن النفوس، لذلك تطالعنا أخبار عن أفراد في هذا المجتمع عرفوا بالروح الخفيفة الوثابة، كيحيى الغزال الذي لم تفارقه دعابته حتى في أحرج الأوقات[5] وابن عبد ربه [6] بل عرفت هذه الروح أيضا عند أكثر

الشخصيات نسكا وورعا،[7] وللحجاري خبر مهم في ذيوع النوادر والنكت بين الأندلسيين أورده المقري في نفح الطيب ومؤداه»... ولشطار الأندلس من النوادر والتنكيتات، والتركيبات وأنواع المضحكات، ما تملأ الدواوين كثرته، وتضحك الثكلى وتسلي المسلوب قصته، مما لو سمعه الجاحظ لم يعظم عنده ما حكى وركب، ولا استغرب أحد ما أورده ولا تعجب».[8] معنى هذا أن روح النكتة والدعابة في هذا الهجاء ذات صلة حميمة بنفوس الأندلسيين وبحياتهم التي اختلفت عن حياة أسلافهم في جزيرة العرب قبل الإسلام اختلافا بينا رصدته المصادر الأندلسية نفسها.[9] وكان من نتاج هذا التحول في حياتهم أن «تفتحت ملامح شخصية طريفة في الأندلس لاهي بالعربية المعهودة ولاهي بالأعجمية السالفة، إنها الشخصية الأندلسية التي حافظت على مقومات الأصالة واستجابت في الوقت نفسه إلى دواعي التجديد»[10]. لذلك فإن روح الدعابة والنكتة التي تجلت بوضوح في شعر الهجاء غير منبتة الصلة عن تطور حياة الأندلسيين الاجتماعية، ويمكننا أن نمثل لهذه الظاهرة الاجتماعية التي انعكست في الشعر بما ذكره ابن عذاري المراكشي من أن عبد الرحمن الناصر مازح يوما وزيره أبا القاسم لبا، فحرضه على هجو الوزير عبد الملك بن جهور، فامتنع فقال لابن جهور «فاهجه أنت إذ أبى هو من هجوك «فامتنع أيضا صيانة لعرضه منه، فقال الناصر «فأنا أهجوه» فقال[11]:

لب أبو القاسم ذو لحية طويلة في طولهـــــا ميل

ثم قال لابن جهور: «لابد من تذييل هذا البيت، فدع الأعذار» فقال:

وعرضها ميلان إن كسرت والعقل مأفون ومـدخول

لو أنه احتاج إلى غسلها لم يكفه في غسلها النـيل

فضحك الناصر وقال للب: «إنه قد سبب لك القول، فقل «فقال

قال أمين الله في خلقـــه   لي لحية أزرى بها الطـــول
وابن عيير قال قول الذي   مأكوله القرطيل والفـــول
لولا حيائي من إمام الهدى   نخست بالمنخس «شوقـول»

فلما بلغ لب إلى قوله:»شو» سكت، فقال له الناصر: قول»، فأتم له على نحو ما أضمر، فقال له: «أنت هجوته يا مولاي» فضحك الناصر»[12].

واضح من سياق الحادثة ومن الصورة التي رسمت للحية ومن بحر الأبيات المتوثب ذي الحركات السريعة (بحر السريع)، ومن تجاوب الناصر مع هذا الشعر أن الغرض في هذا المقام هو التبسط والتفكه ليس غير. وهناك أمثلة أخرى أشار المؤرخون إلى أنها قيلت في قالب هزلي أريد به التفكه والتندر دون أن يكون القصد منها التشفي والانتقام من المهجو [13].

وفي سياق التطور الذي مس الحياة فتجلت آثاره في أذواق الناس تناول فن الهجاء ضخامة الأنوف وطولها المفرط على اعتبار أن هذين المظهرين يخلان بالتناسق والانسجام لدى المرء، لذلك كان هذا الاختلال مصدر مادة هجائية ذات بال لا في الشعر الأندلسي فحسب إنما في الشعر العربي عامة عندما تطورت أذواق الناس مع التطور الذي عرفته حياتهم، وربما كان ابن الرومي مقدما على سواه في هذا الباب مثلما كان مقدما أيضا في هجاء أصحاب اللحى. ولا أميل إلى القول إن هذا اللون من الهجاء عند الأندلسيين كان صدى فحسب لهذا الهجاء الجديد في المشرق، فالكلف بما هو جميل والنفور من السماجة والقبح كان مظهرا من مظاهر الشخصية الأندلسية، لذلك يذكر المؤرخون أن أهل هذا الصقع كانوا يعنون بتبييض

منازلهم لئلا تبدو في مظهر تنبو عنه العين، وأنهم كانوا يفضلون أن يظهروا بمظهر نظيف على أن يظهروا في هيئة وسخة وبطونهم ملأى، وأنهم كانوا يتخذون البياض شعارا للحداد نفورا من السواد. معنى هذا أن هذه المسألة لها علاقة بتطور الذوق عند هؤلاء نتيجة للتحول الذي حدث في حياتهم وليست محض تقليد لنماذج قرؤوها في شعر المحدثين المشارقة. بسبب من ذلك- في تقديرنا- كان ضخام الأنوف عرضة لتهكم الشعراء وسخريتهم، فقد صوروا كبر أنوفهم وطولها تصويرا مضحكا وأخرجوا صورها إخراجا ساخرا هازئا مثيرا للضحك والشفقة على أصحابها في آن معا، لمبالغتهم في رسم صورها مبالغة تخل بالتناسق الكائن بين أعضاء الإنسان، فهم في ذلك يقتربون من أصحاب الفن» الكاريكاتوري» الحديث. وقد احتفظ لنا ابن الكتاني، في هذا المضمار، بطائفة من النصوص الساخرة من ضخام الأنوف، منها هجاء عبد الله بن كليب لأنف الزهري. فقد بالغ الشاعر في تكبير صورة أنف المهجو مبالغة مفرطة فجعله في شكله وضخامته كالبوق، وذهب إلى أبعد مدى في تصوير طوله، فإذا الزهري قاعد في الدار وأنفه ينوب عنه في قضاء حوائجه في السوق. قال:(14)

أنفك يا زهري في قبحه كأنه في صـــورة البـوق
يقعد في البيت لحـاجاته وأنفه يمضي إلى السـوق

إن الصورة التي رسمها الشاعر لهذا الأنف صورة تثير الضحك وتبعث على الإشفاق في وقت واحد، فلنا أن نتصور معاناة صاحب هذا الأنف العظيم الهيئة المفرط الطول ! إننا من هذه الناحية نتعاطف مع الزهري ونرثي لحاله، لما تبرزه هذه الصورة من اختلال في توازنه الجسماني، لكنها

من ناحية أخرى صورة ساخرة تهز النفس وتجعل صاحبها مثارا للتفكه والتندر.

يبدو أن هذه الصورة لأنف الزهري مع ما فيها من مبالغة شديدة، لم تكن مجرد صورة خيالية مفارقة للواقع وبعيدة كل البعد عنه، لأننا نجد شاعرا آخر هو محمد بن الفلاس يتعرض لهجائه من هذه الناحية فيصور طول أنفه، فإذا بالزهري قاعد في بيته أما أنفه فلفرط طوله فإنه يسرح في أنحاء الدار، قال[15]:

أنفك يا زهري من قبحه | كأنه إرزب قصار
يقعد في البيت لحاجاته | وأنفه يسرح في الدار

وإلى جانب الأنوف المخلة بالتناسق الجسماني كان الحدب وقصر القامة مادة ثرة للسخرية والتندر من جهة ما يلحقانه من إخلال في تناسق خِلقة الإنسان. فقد وصف الشعراء أصحاب هذه العاهات وصفا فيه دقة وبراعة أحيانا، فابن وهب رأى رجلا أحدب فخيل إليه أنه آمرء يشكو ألما في صلبه فجمع بعضه إلى بعض من شدة الوجع فتضاءل جسمه، قال[16]

وأحدب لما بدا خلته | وقد خف من جسمه شبحه
كآس تشكى شديد الكلال | على صلبه قد خفي جرحه

ومثلما ذم الحدب، ذم قصر القامة أيضا، فعبادة الشاعر، التفت إلى قصر قامة صديق له، فقال يصف حاله هذه [17]:

وصاحب لي كأن قامته | أقصر من يوم وصل معشوقي

ولم يقتصر تناول هذه النقائص المشوهة لخِلقةِ من تلحق به على الرجال، إنما تناولها الهجاء في المرأة أيضا، ولعل عيوب السحنة في

المرأة أبعث على النفور منها ومقتها. وهجاء المرأة ليس جديدا في حد ذاته، فالشعر القديم تناولها هو الآخر بالهجاء، ولكنه كان يعرض لها في الغالب من الناحية التي تجلب العار والمذلة لقومها. وحتى عندما عرض الهجاء لبعض النواحي الجسدية لديها كوصف انتفاخ بطنها واستدارة خصرها، وهي الصورة المناقضة للمثل الأعلى في جمال المرأة عند قدماء العرب الذين كلفوا بالمرأة الهيفاء المخطفة الأحشاء الضامرة الخصر، فإن الغاية كانت الوصول إلى رمي قومها باللؤم والقبح المستمد من قبح نسائهم وقماءتهن[18]. على أي حال إن التعرض للمهجو من هذه الناحية في الشعر القديم لم يكن شيئا إذا قيس بالهجاء السلاب للفضائل التي كانوا يتمدحون بها ويفتخرون.

أما الهجاء الذي نتحدث عنه، أعني الهجاء المعبر عن التطور الذي مس حياة أهل الأندلس وأذواقهم، فإنه تناول المرأة بعيدا عن جميع العلاقات التي تربطها بقومها وأسرتها، فيحيي الغزال على سبيل المثال عرض لهجاء امرأة فمسخها مسخا شنيعا بأن سلبها جميع مظاهر الجمال المادي والمعنوي التي تبعث على الافتتان بالمرأة، فهي – كما قدمها- حادة اللسان، ليس على رأسها أكثر من خمس شعرات، فتعممت لتستر صلعتها المزرية، فيظهر الغزال بدعابته المعهودة فيلطمها ليعري عن صلعتها البراقة متخذا منها مظهرا للسخرية والهزء، ثم يتجه إلى نواح أخرى في خلقتها، فيظهر النتوءات الشديدة البروز في جنباتها. وإمعانا في تشويه خلقتها، انبرى إلى وصف كاهلها الذي شبهه في ضعفه وهزله بسنام إبل أهزلها طول السرى وقطع الفيافي المضنية، قال[19]:

جرداء، صلعاء لم يبق الزمان لها ... ذإلا لسانا ملحا بالملامات
لطمتها لطمة طارت عمامتها ... عن صلعة ليس فيها خمس شعرات
كأنها بيضة الشاري إذا برقت ... بالمأزق الضنك بين المشرفيات
لها حروف نوات في جوانبها ... كقسمة الأرض حيزت بالتخومات
وكاهل كسنام جرده ... طول السفار والحاح القتودات

فقد شوه الشاعر صورة هذه المرأة تشويها كبيرا، فبدت وكأنها عجوز أخنى عليها الدهر، فلم يبق منها سوى الجلد والعظم. ونلحظ كيف يميل الشاعر إلى المبالغة والتجسيم ليبرز عيوب الخلقة في هذه المرأة إبرازا شديدا مفيدا من بعض الصور التراثية، كصورة الإبل التي أجهدتها الصحراء، فأصابها الهزال بعد السمنة والاكتناز، وهي صورة تطالعنا غالبا عند حديث الشعراء القدامى عن رحلاتهم إلى ممدوحيهم . وهذه الإفادة من التراث لا تزري بارتباط هذا الهجاء بالتحول الذي حدث في مجتمع الشاعر، فهو – أي الشاعر – أفاد من هذه الصورة التي لم يكن المراد بها الهجاء عند أسلافه . فوظفها في رسم الصورة التي أراد أن يبرز فيها مهجوته التي ظلت رؤيته إليها رؤية الشاعر الذي تفاعل مع تطور المجتمع فأضحى يؤمن أن الفرد بنفسه لا بقومه وأهله مثلما كان يؤمن بذلك المجتمع العربي البدوي القديم .

ومما زاد هذا الهجاء ارتباطا بهذا المجتمع المتحضر اتجاهه إلى هجاء المغنيات . فلما كان صفاء صوت المغنية وحلاوته إلى جانب كمال الخِلقة وبهاء الطلعة مطلبين رئيسين فيها، فإنه من الطبيعي أن يذم الشعراء في المغنية بشاعة الصوت واضطراب النغم والجهد في الأداء، لما تثيره هذه الصفات من سأم وضجر في نفوس جمهورها . ومن الطبيعي أيضا أن يذموا

ما في خِلقتها من عيوب كأن تكون بشعة الصورة منعدمة فيها صفات الأنوثة وماء الشباب وهلم جرا. فقد أورد ابن الكتاني في كتاب التشبيهات خبرا مفاده أن إسماعيل بن بدرزار في جمع من صحبه رجلا فألفوا أمامه خبزا، فساءته زيارتهم له في هذا الأوان، فتنفس تنفس المغموم المأزوم، فقطب جبينه كاشفا عن ضجره منهم، فنفس عليه القوم بأن زهدوا في طعامه وأبدوا له

رغبة في سماع صوت عذب رخيم يطربهم، فأحضر لهم مغنية صلعاء، قد ذهبت أسنانها، فرجَّعت لهم بصوت خشن مضطرب آذى أسماعهم، حتى كأن بحلقها وهي تغني كلابا تتهارش أو ضفادع تنقنق من شدة اضطراب صوتها وبشاعته، فقال إسماعيل بن بدر[20] :

وقطب لما لامسته الأصابع ... تنفس لما لاحظ القوم خبزه
بعود فما القوم غيرك جائع ... فقلنا له إنا شباع فجد لنا
بصوت لها تستك منه المسامع ... فأسمعنا درداء، صلعاء رجَّعت
بحلقومها أم نقنقت بي ضفادع ... فوالله ما أدري كلابٌ تهارشت

لا يغير ما نلحظه من صلة بين هجاء هذه المغنية وهجاء صاحبها مما ذهبنا إليه من أن الفرد في هذا المجتمع أصبح بنفسه لا بقبيلته وأسرته، فهذا اللون من الهجاء يعد أثرا من آثار الحياة الاجتماعية المترفة التي أرهفت الأذواق وصقلتها، فأصبحت تنفر من القبح في المعنويات فضلا عنه في الماديات. ثم إنه، من ناحية أخرى، ظاهرة أدبية جديدة اقتضى وجودها ما تتطلبه صنعة الغناء من صوت ساحر وأداء رخيم حسن وصورة جميلة، فكأن الشعراء بتوجههم إلى هجاء المغنيات من هذه الناحية إنما يرومون تطهير حلبة الغناء ممن يفتقر إلى مؤهلات هذه الصنعة، فضلا عما فيه من دلالة على ارتباط الشعر بالحياة المصطخبة من حوله.

وعرف هذا الفن ظاهرة جديدة اقترنت بظواهر اجتماعية لم يعرفها المجتمع البدوي في أغلب الظن، كالتطفل الذي تولد عنه هجاء الأكلة والطفيليين الذين يفرضون أنفسهم على موائد الآخرين دون سابق دعوة. غير أن هذه الظاهرة لم يعرفها المجتمع الأندلسي بالصورة نفسها التي عرفها المجتمع العباسي، لما بلي به من تمايز طبقي عنيف تولدت عنه فئة معوزة لم تجد حيلة لافتكاك قوت يومها سوى هذه الأساليب بما فيها من إهانة ومذلة وإراقة ماء الوجه .

ولعل مما يدل على ضيق دائرة هذه الظاهرة في الأندلس قلة الأخبار عنها، فكأنها كانت ظاهرة عارضة جدا فلم تلفت أنظار المؤرخين للعناية بأخبار أصحابها مثلما صنع الخطيب البغدادي في كتاب التطفل وحكايات الطفيليين. ويخيل إلينا أن ظهور هذه الجماعة في الأندلس لا يعود إلى اختلال صارخ في توزيع الثروة، إنما إلى شذوذ هذه الجماعة عن أهل الأندلس الذين وصفهم المقري بقوله : « وهم أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال، فلذلك قد ينسبون إلى البخل » [21]

على كل حال، إذا كان التاريخ قد أهمل هذه الفئة في الأندلس، فإن الشعر فضحها، فشخص هذا المرض الاجتماعي الخطير. فكأن الشعراء في هجائهم هذه الجماعة إنما كانوا يرومون تطهير المجتمع من أدوائها . فقد عرض عبد الله بن فرج إلى هجاء طفيلي يعرف بابن الأمام، فصور تصويرا مفصلا تحسسه مواضع الولائم، ودخل إلى نفس مهجوه ليعري عما يخالجه من إحساسات قبل وحين يهتدي إلى وليمة من الولائم، فلا تزال نفسه تمور غضبا حتى يلوح له ضباب دخان من بعيد، فيحرك شهوة

الأكل في نفسه، فتقوده حاسته الشمية القوية نحو مصدر الدخان، فهتدي إليه اهتداء الضال بالنجم. فقد علا ذات مرة دخان ب» شنت طولة» إحدى مدن الأندلس، فعرف ابن الأمام من خلاله مكان الوليمة، فانطلق نحوه ركضا مع لمة من أهله الأماميين من دون سابق دعوة، فبدوا في ركضهم كأنهم خيل أعدت للرهان بتصويمها. وحتى لا تفوت هذا الطفيلي أية وليمة أينما عقدت، أقام ببجانة من ينبئه بمواعيد الأعراس ليحضر ولائمها. على هذا النحو، تراه أبدا صبا للتطواف والتجوال، فلو سمع وأهله بموعد وليمة ب»عمان» لقصدوها. ولشره هذا الأمامي، فإنه لا يزور أصدقاءه شوقا إلى لقياهم، بل لما يقدم له أثناء الزيارة من طعام. وإذا وضع طعام وحضره الأماميون، تساقطوا عليه كالذباب فالتهموه التهاما، فترى كبيرهم – وهو المقصود بالهجاء – بينهم يلتطم في لقمته الضخمة وسيماء الغضب بادية عليه، ويثير أثناء الأكل جلبة كتلك التي يثيرها السكران الثمل. ولا يكفي أن يشبع البطن، إنما يملأ أكمامه أيضا تحسبا لجوع مفترض. فقد ضجر رجل من ثقله، مرة، فقصد جيان مستخفيا في قراها، غير أن استخفاءه لم ينجه منه، فكيف ينجو منه وهو لاحقه حتى لوحل بنجران كما قال الشاعر [22]. ونمثل لهذا اللون من الهجاء الراصد لهذه الظاهرة في المجتمع الأندلسي بالبيتين التاليين لابن أبي عيسى يصور فيهما تهالك أحد الطفليين على الأكل وحنينه إليه حنين الرضيع إلى أمه. فقد جسد شرهه من خلال لقمات الطعام التي تبدو عنده على غير معتاد، قال [23]:

يحن إلى طيبات الطعام حنين الرضيع إلى الوالدة
وأركان لقمته ستة كأنه له إصبعا زائدة

ويتصل بمتابعة فن الهجاء تحولات المجتمع من خلال المظاهر السلوكية لإفراده، هجاء الثقلاء والكذبة. وهذا الصنف من الهجاء كهجاء الطفيليين يعد من أخطر أنواع الهجاء، لأنه يتناول نواحي ذات صلة بحياة الإنسان والمجتمع، فهو يقدم لنا صنفا من النماذج البشرية الشاذة في الحياة الاجتماعية. فبالنسبة إلى الثقل، فإنه من الطبيعي أن يصبح صفة مذمومة في مجتمع تطورت أذواق أفراده فأضحت تشمئز من كل ما فيه شذوذ عن الطبيعة الإنسانية السوية في عرف الإنسان المتحضر. فمثلما كان الرجل في مجتمع البداوة القديم يفخر بكرمه وشجاعته، فإن الرجل في هذه الحياة الجديدة أصبح يفخر بخفة الروح التي غدت من فضائل الإنسان المتحضر المرهف الذوق، قال أحمد بن عبد الوهاب يفخر بهذه الصفة في نفسه [24]:

ومن يعزى إلى ثقل فإني أخف على الرياض من الذباب
ولست كمن توصله إليكم طلوع الشيب في ليل الشباب

وعلى النقيض من هذا غدا الثقل مثلبة في سلوك الفرد، فانبرى الشعراء يرشقون بسهامهم أولئك الذين إذا جالسوا امرأ، ناؤوا عليه بثقلهم وغلظ نفوسهم حتى ليحس أن جبالا راسيات قد شدت على ظهره. فقد هجاء ابن فرج الرشاش أحد هؤلاء الثقلاء فقال فيه [25]:

ما إن جلست إلى جليس مرة إلا كان عليه منك الفيلا

وتغلغل هذا اللون من الهجاء إلى أمراض اجتماعية وأخلاقية أخرى كالكذب والرياء. ولاشك أن مثل هذه الأمراض يقترن وجودها في مجتمع ما بما يصيب الحياة من تعقد وبطغيان المصالح الفردية على مصلحة الجماعة وبقيام العلاقات الاجتماعية على أساس من المصلحة والنفعية، الأمر الذي يدفع المرء إلى الظهور بأوجه شتى حسبما تقتضيه مصلحته، ولكن لا ينبغي أن نهمل في مثل هذه الظواهر الاجتماعية العامل النفسي، فالمصابون بمركبات النقص كثيرا ما يحققون أحلامهم وبطولاتهم الخارقة من خلال الكذب فتراهم ينسجون أحداثا وقصصا لا وجود لها إلا في أخيلتهم.

وفي هذا المضمار نجد عددا من الشعراء يتصدون لهذا المرض الاجتماعي بهجاء المصابين به مثلما فعل علي بن أبي الحسين الذي انبرى لذم كذاب وفضح أكاذيبه وأباطيله، فأقوال هذا الإنسان -كما يقول- في مجافاتها الصدق كالطيف الذي يلم بالعاشق في نومه فيخيل إليه أن محبوبته قد جادت عليه بوصل، وهو في الحقيقة يتوهم حدوث هذا الوصل توهما. وكأن أكاذيبه أيضا وعد أعطاه محبوب لمحب ولكن من عادة هذا المحبوب الخلف وعدم الوفاء بالمواعيد. ولأنه جبل على الكذب، فإنه لو سئل عن صدقه فيما ينسجه ويلفقه من أقوال، فإنه لا يستطيع إلا أن يكون كاذبا في إجابته، قال علي بن أبي الحسين[26]:

قول أشبهــــــه خيالا زائـرا أسرى فعلل بالفؤاد مشوقا

أو وعد إلف للجفاء مؤالـف جعل الخلاف إلى العباد طريقا

لوكنت تسأل هل صدقت تركت:لا حذرا وخوفا أن تكون صدوقا

وفي هذا السياق نفسه هجا محمد بن الحسين الطبني شخصا كان يتظاهر له بالصداقة، فإذا غاب عنه سلط عليه لسانه . فهو شخصية تلبس لكل موقف وجها، فمن شيمه الرياء والنفاق والغيبة ، لذلك تراه يلقى صاحبه بالبشرى والترحاب ويبريه وراء ظهره بري القلم، قال [27] :

ووغد إن أردت له عقابا عفا عن ذنبه حسبي وديـني

يؤنبني بغيبة مستطيل ويلقاني بصفحة مستكيــــن

ولولا الحلم أن له لـجاما لداس الفحل بطن ابن اللبون

وليست هذه النماذج من المهجوين من صنع أخيلة الشعراء بل هي – في الحقيقة – نماذج واقعية، فالطفيلي والأكول والكذاب والمرائي والمنافق ذو الوجوه المتعددة، هذه كلها شخصيات ملتقطة من صميم الواقع، من ثم تظهر أهمية هذا الهجاء في ارتباطه بالحياة الاجتماعية المتحضرة وفي تعبيره عن التحول الذي عرفه المجتمع الأندلسي، خاصة أن هذا الهجاء لم يقتصر على تشخيص عيوب الطبقة العامة إنما امتد إلى الطبقة الخاصة أيضا، فيحيى الغزال كما قال الدكتور محمد رضوان الداية «انتهج النقد الاجتماعي ولم يكن أحد عنده فوق مستوى النقد، وكانت نماذجه المنقودة من الرؤوس : نصر، زرياب، ويخامر : وهم متنفذ كبير،

ومغني الأمير وضيفه، وقاضيه « [28].فنصر الخصي الذي يقول ابن حيان في حقه :» أرهب ما كان الناس له وأخوفهم لعدوانه « [29] . تناوله يحيى الغزال بالهجاء حيا وميتا بجرأة فائقة معبرا عن رأي العامة فيه، فقد قال فيه وهو حي يرزق [30] :

أيا لاهيا في القصر قرب المقابر — يرى كل يوم واردا غيرصادر
كأنك قد أيقنت أن لست صائرا — غدا بينهم في بعض تلك الحفائر
تراهم فتلهو بالشراب وبعض ما — تلذ به من نقر تلك المزامر

ولم يستثن هذا الهجاء في الأندلس الحكام أنفسهم، فتناول الجوانب السلبية في حياتهم، وكان هذا الشعر يعبر - من دون شك – عن رأي عامة الناس فيهم، فهشام بن عبد الجبار أحد المشاركين في الفتنة المبيرة التي هزت الأندلس في نهاية القرن الرابع الهجري، كان، كما جاء في البيان المغرب، على أخلاق رديئة وسلوك سيئ فيه مجون وخلاعة، إلى اختلال في الدين وإدمان على الشراب وإتيان المناكير، فلما تولى أمر الأندلس أيام الفتنة قال فيه بعضهم [31] :

أمير الناس سخنة كل عين — يبيت الليل بين مخنثين
يجشم ذا ويلثم خد هذا — ويسكر كل يوم سكرتين
لقد ولوا خلافتهم سفيها — ضعيف العقل شينا غير زين

وفي هذا السياق أيضا تناول الشعر بالهجاء الحاجب المنصور بن أبي عامر وعلاقته بصبح أم هشام المؤيد خليفة الأندلس، وهي علاقة كان الناس ينظرون إليها بشيء غير قليل من الريب [32].

وتتبع أيضا فن الهجاء المتصل بموضوعنا القضاة فأبرز ما اتصف به بعضهم من نواقص لا تؤهل صاحبها إلى هذه المهنة كالغفلة والبله وضآلة الحظ من الثقافة والجهل بأمور القضاء، فقد هجا يحيى الغزال القاضي يخامر الشعباني من هذه النواحي فقال [33]:

لقد سمعت عجيبا ... من آبدات يخامر
قرا عليه غلام ... طه وسورة غافر
فقال : من قال هذا ؟ ... هذا لعمري شاعر !
أردت صفع قفاه ... فخفت صولة جائر
أتيت يوما بتيس ... مستعبرا متحاسر
فقلت : قوموا آذبحوه ... فقال : إني يخامر

وقال في هذا القاضي نفسه مركزا على بضاعته المزجاة فيما تستوجبه مهنة القضاء من علم وسعه معرفة في علوم الدين (34) :

فقلت له كلفتني غير صنعتي ... كما قلدوا فضل القضاء يخامرا
فأصبح قد حارت به طرق الهوى ... يكابد لجيا من البحر زاخرا
فقلت :لو استعفيت منها فقال لي: ... سأفضح ما قد كان منك مغايرا
فقلت له : رأس الفضوح إقامة ... علينا كذا من غير علم مكابرا
وخبطك في دين الإله على عمى ... خباطة سكران تكلم سادرا
فلن تحمل الصخر الذباب ولن ترى الـ ... سلاحف يزجين السفين المواخر

ويبدو أن هذا القاضي كان ظاهرة في الغفلة والبله والجهل بأوليات المعارف ذات العلاقة بعلوم الشرع والدين وبسواها من المعارف حتى العامة منها، لذلك تناوله أكثر من شاعر بالهجاء من هذه الناحية، فقد جاء

في المقتبس لابن حيان القرطبي أن عبد الله بن الشمر الشاعر ألقى مرة بين السحاءات التي كان يخامر ينادي بها الخصوم للتقدم إليه سحاءة مكتوبا عليها « يونس بن متى « و» المسيح بن مريم «، ولما وصلت هذه السحاءة إلى يده، أمر أن يدعى للخصمين بها، فهتف الهاتف : يونس بن متى والمسيح بن مريم ! ولا مجيب إلى أن صاح ابن الشمر: إن نزولهما من أشراط الساعة، ثم قال [35] :

يخامر ما تنفك تأتي بفضحة ... دعوت ابن متى والمسيح بن مريما

فثوب فينا ثم ناداك صائح ... فإنهما لما على الأرض يعلما

قفاك قفا جحش ووجهك مظلم ... وعقلك ما يسوى من البعر درهما

فلا عشت مودودا ولا رحت سالما ... ولا مت مفقودا ولامت مسلما

وتناول هجاء القضاة ما يناقض العدالة كخيانة الشهادة وتزويرها وما إلى ذلك، فتغلغل من هذه الناحية أيضا في المجتمع فكشف عن الفئة المتصفة بمثل هذه العيوب التي تلحق أضرارا بليغة بالناس وتتسبب في ضياع مصالحهم وحقوقهم ظلما وزورا، كما اتجه في هذا السياق نفسه إلى فضح الطبقة المتظاهرة بالتدين والورع والوقار والتواضع وحسن السيرة والصلاح ليوقعوا ضحاياهم في مصايدهم فيسهل عليهم بلوغ مآربهم وتحقيق مكاسبهم بطرق لا يقرها لا العقل ولا الشرع الذي يتظاهرون بتمثيله، فتناول شعر الهجاء هذه الفئة وأغلبها من الفقهاء والقضاة وجعلها موضوعا من موضوعاته لتعريتها وفضحها، ويعتبر يحيى بن حكم الغزال من أكثر شعراء وقته اهتماما بتتبع السلوكات المنحرفة

التي يصدر عنها أشخاص يفترض فيهم أن يكونوا مثالا للنزاهة والاستقامة والعدل، فقد قال عنه الدكتور محمد رضوان الداية : « كان ينقم سوء استعمال المنصب... ونجد في هجومه على بعض القضاة أو الفقهاء أو العدول الأسباب الموجبة للهجوم... ونقدر موقفه من كل مستغل وجامع للمال الحرام »[36]، فمما قاله في الفقهاء منتقدا ثراهم غير المشروع[37] :

لست تلقى الفقيه إلا غنيا ليت شعري من أين يستغنونا
نقطع البر والبحار طلاب الرز ق والقوم ها هنا قاعدونا
إن للقوم مضربا غاب عنا لم يصب قصد وجهه الراكبونا

وفي استغلال بعض القضاة مناصبهم للاستحواذ على ما بأيدي الآخرين بغير وجه حق، قال[38] :

يقول لي القاضي معاذ مشاورا وولى امرأ فيما يرى من ذوي العدل :
قعيدك، ماذا تحسب المرء صانعا ؟ فقلت : وماذا يفعل الدب في النحل؟
يدق خلاياها ويأكل شهدها ويترك للذبان ما كان من فضل

وفي أولئك الذين يلفقون الشهادة ويزورونها غير مبالين بما يترتب عن سلوكهم هذا من أضرار جسيمة تصيب الغير جورا وظلما قال (39) :

أتاك أبو حفص ويحيى بن مالك فأهلا وسهلا بالوغى والمعامع
رجال إذا صبوا عليك شهادة حكت فيك وقع المرهفات القواطع
أقول لديكي إذ رأيت وجوههم : تعز فقد جاءتك إحدى الفجائع
رثا واستهلت عند ذاك دموعه وقال : كثيرا ما أفاضوا مدامعي

ولم يكن يحيى الغزال مثالا فردا في تتبع هذه الظواهر السلبية التي صاحبت التحول والتعقيد الذي عرفته الحياة الاجتماعية في الأندلس، ففي المصنفات التاريخية والأدبية الأندلسية نماذج شعرية أخرى أماطت اللثام عن مثل هذه الظواهر وانتقدت فيها المتصفين بها [40].

ومع تطور الحياة العلمية والثقافية في الأندلس وبلوغها درجة عالية من النضج حظي العلماء عند الخاصة والعامة على سواء بشيء غير قليل من التقدير والتعظيم فأنزلوهم منازل عالية مرموقة، سوى إنه ظهر بين هؤلاء العلماء بعض المتعالمين الذين قلدوا مناصب غير مؤهلين لها فافتضح أمرهم وانكشف ضيق أفقهم وهشاشة علمهم وضحالة ما بأيديهم منه، فتناولهم الهجاء بلسان درب حديد وسلط عليهم سهامه وألقمهم حجارة مدمية وأظهرهم للناس على حقيقتهم بأن نزع عنهم الأقنعة التي تقنعوا بها على نحو ما فعله الوليد بن عبد الرحمن بعبيد الله بن يحيى الليثي الذي كان يتصدر مجلسا من مجالس العلم بالأندلس نال على إثره لقب « الشيخ»، فقد سئل في مجلس من مجالسه عن « الثغامة» لمرور ذكرها فيما قرئ عليه، فكان جوابه : الثغامة طائر من طيور الماء، فقال فيه الوليد بن عبد الرحمن [41] :

ذهب الزمان بصفوة العلماء وبقيت في ظلم وفي عمياء
وأتى طغام رتع من بعدهم لا فرق بينهم وبين الشاء
فإذا سألت عن الثغام أشدهم علما يفسره بطي رالماء

وفي ابن أرقم الذي تولى خطة التأديب ولم يكن معدودا بين العلماء والأدباء قال بكر الأعمى يزري به ويحط من شأنه ويبدي استغرابه وتعجبه

من الزمن الذي هانت معه خطة التأديب حتى وصلها ابن أرقم قال (42) :

قلب الزمان فجاء بالمقلوب وتظاهرت آيات كل عجيب

لا تيأسن من الوزارة بعدما نال ابن أرقم خطة التأديب

ومن هذا المنظور نفسه، كان الأحداث من الكتاب الذين يدعون المعرفة بفنون الكتابة وهم لا يحسنون منها شيئا دريئة لسهام الشعراء، فتناولوهم بالهجاء، ومما وصلنا في هذا الموضوع البيتان الآتيان لشاعر قال عنه الحميدي إنه أديب قديم، تعرض فيهما لهذه الفئة من الكتاب الذين لا يفقهون للكتابة معنى فضاعت معهم فنونها قال (43) :

قلب الزمان فبان بالآداب ومحا رسوم محاسن الكتاب

وأتى بكتاب لو استخبرتهم لرددتهم طرا إلى الكتاب

وفي سياق التطور الذي عرفه المجتمع الأندلسي، نمت الحياة الثقافية والعلمية به نموا لم يعرفه المجتمع البدوي القديم فاتسعت لعلوم جديدة منها علم الفلك الذي يبدو أنه لم يجد الترحيب عند جميع الناس فناصبه بعضهم العداء فهجوا الآخذين به وسخروا منهم وسفهوا أقوالهم، كما هو شأن ابن عبد ربه في هجائه وسخريته من أبي عبيدة البلنسي وتهكمه به، فقد كان يقول بكروية الأرض وبتعاقب الفصول عليها واختلافها من مكان لآخر باختلاف موقع هذا المكان شمالا أو جنوبا [44] . فراح ابن عبد ربه يسخف آراءه ويرميه بالشذوذ عن الجماعة وينسبه إلى الإرجاء والاعتزال، ويرمي صاحبه ابن موسى بالغواية، قال [45] :

أبا عبيدة والمسؤول عن خبر يحكيه إلا سؤالا للذي سألا

أبيت إلا شذوذا عن جماعتنا ولم يصب لا رأي من أرجا ولا اعتزالا

كذلك القبلة الأولى مبدلة وقد أبيت فما تبغي بها بـدلا
زعمت بهرام أو بيدخت يزرقنا لا بل عطارد أو برجيس أو زحـلا
وقلت : إن جميع الخلق في فلك بهم يحيط وفيهم يقسم الأجـلا
والأرض كورية حف السماء بها فوقا وتحتا وصارت نقطة مثلا
صيف الجنوب شتاء للشمال بها د صار بينهما هـذا وذا دولا
فإن كانون في صنعا وقرطبة برد وأيلول يذكي فيهما الشـعلا
هذا الدليل ولا قول غررت به من القوانين يجلي القول والعـملا
كما استمر ابن موسى في غوايته فَوعَّر السهل حتى خلته جـبلا
أبلغ معاوية المصغي لقولهما أني كفرت بما قالا وما فـعلا !

وعندما صنع عباس بن فرناس في بيته هيئة السماء، وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود، هجاه مؤمن بن سعيد هجاء مذقعا بألفاظ بذيئة ساخرا منه ومسخفا إبداعاته في الفلك، وقد أورد هذا الهجاء المقري في نفح الطيب في سياق كلامه عما يحكى عن أهل الأندلس «في الذكاء واستخراج العلوم واستنباطها.» [46]

وفي هذا المساق أيضا تناول بعض الشعراء بالهجاء المشتغلين بالتنجيم فرموهم بالكذب وسخروا منهم وسفهوا تنبؤاتهم، قال ابن عبد ربه في هجاء بعض المنجمين [47]:

قل لأبن عزرا ألسخيف الحجا زرى عليك الكوكب الثاقب !
ما يعلم الشاهد من حكمنا كيف بأمر حكمه غائـب

وقل لعباس وأشياعه كيف ترى؟ قولكم الكاذب!
خانكم كيوان في قوسه وغركم في لونه الكاتب
فكلكم يكذب في علمه وعلمكم في أصله كاذب
ما أنتم شيء ولا علمكم «قدضعف المطلوب والطالب»[48]

وقد اقتضى تعقد الحياة في المجتمع الأندلسي شأنه شأن المجتمعات الإسلامية الأخرى بعد مخالطة الحضارة إنشاء وظيفة الحجابة، فأصبح الوصول إلى ذوي السلطان أمرا غير ميسور قبل الاستئذان والانتظار لوقت طويل أحيانا، ويبدو أن بعض المحجوبين بالغوا في امتناعهم عن لقاء الناس لاسيما المغمورين منهم، فجروا على أنفسهم قبيح القول، فقد ذكر الحميدي في جذوة المقتبس أن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد زار جد عبد الملك بن جهور، فوافقه محجوبا فعز عليه الوصول إليه فكتب يهجوه[49]:

أتيناك لاعن حاجة عرضت لنا إليك ولا قلب إليك مشوق
ولكننا زرنا بضعف عقولنا حمارا تولى برنا بعقوق

وهجا ابن عبد ربه أحد هؤلاء المحجوبين فسخر منه سخرية مرة، فقد كان يكفي هذا المحجوب قبح وجهه وذمامة خلقته إقامة حاجب على بابه، فما عليه إلا أن يعزل حاجبه، ففي ما في وجهه من عيوب ومن نقص ممقوت ما يصرف عنه قصاده ويرد عنه طراقه، قال[50]:

ما بال بابك محروسا ببواب يحميه من طارق يأتي ومنتاب
لا يحتجب وجهك الممقوت عن أحد فالمقت يحجبه من غير حجاب !
فاعزل عن الباب من قد ظل يحجبه فإن في وجهك طلسم على الباب !

ومما يؤكد ارتباط فن الهجاء في الأندلس بالواقع الاجتماعي وتعبيره عما عرفه من تحول قياسا إلى المجتمع البدوي القديم مراعاته ذوق جمهوره من الناحية اللغوية، فقد ابتعد شعراؤه عن اللغة الغريبة الخشنة التي يعتاص فهمها، فالشواهد التي أوردناها وإن لم يكن مستواها اللغوي واحدا، فإن السمة الغالبة على لغتها هي الوضوح والميل إلى العبارة العذبة الرشيقة، مع توافر موسيقى مرحة ومغرية أحيانا في الأبيات كما يظهر ذلك في الأبيات التي أثبناها ليحيى الغزال يهجو فيها يخامر الشعباني . وإلى جانب ذلك نلحظ في النموذج الذي أوردناه لأبي القاسم لب يرد فيه على ابن جهور ظاهرة لغوية تعبر عن تركيبة المجتمع الأندلسي، الذي لم يكن عربيا خالصا، ففي النموذج المذكور ميل واضح إلى استعمال بعض الألفاظ المتداولة في هذا المجتمع الذي امتزجت فيه العناصر البشرية، من هذه الألفاظ « القرضيل» و « الفول « وهي من ألوان المأكولات التي كانت شائعة في الوسط الشعبي في المجتمع الأندلسي كما نجد في هذا النموذج نفسه لفظتين من العامية الأندلسية المتأثرة بالإسبانية القديمة وهما « شو «الدالة على ضمير الملكية وتطورت في الإسبانية الحديثة إلى «سو،Su» و « قولو « ومعناها الردف، وهي في الإسبانية « 51) » culo) . وهذه الظاهرة اللغوية تعتبر – في تقديرنا – ملمحا من ملاح التحول الذي عرفه المجتمع الأندلسي على إثر الامتزاج الذي حدث بين العناصر البشرية التي شكلت تركيبته .

وتجلى تعبير هذا الهجاء عن المجتمع من خلال بعض معانيه أيضا كما نلمس ذلك في أبيات ليحيى الغزال يهجو فيها الأسوار بن عقبة، قال [52] :

وتحسب من خبه أنه — تراه عن الناس في غربه
وما ذاك منه -فلا تأمنو — ه - إلا لتمكنه الوثبه
رأيت له ناظري هرة — تراءى لها الفأر في ثقبه

إن يحيى الغزال استمد معناه والمثال الذي وضحه به مما يدور في أحاديث العامة، فضرب المثل بالفأر والهرة في الكلام على أولئك الذين ينتهزون الفرص لتحقيق مآربهم، أمرذائع في الوسط الشعبي، فمنه التقط الشاعر الصورة التي جسد من خلالها معناه . وتلقنا مثل هذه المعاني المستمدة مما هو متداول في المجتمع في أكثر من نموذج من نماذج شعر الهجاء في الأندلس من ذلك هذان البيتان ليحيى القلفاط في محمد بن إسماعيل الحكيم وكان قد قضى ليلة معه في بيته فلم يفيقا من نومهما إلا مع طلوع الشمس فقال القلفاط يخاطبه [53] :

يا ديك مالك لم تصرخ فتنبهنا — لقد أسأت بنا ديك الدجاجات
يا آكلا للقذى يا سالحا عبثا — على الحصير بهيمي البهيمات

إن هذين البيتين وإن كانت الغاية منهما التبسط والتفكه لا التعبير عن سخط الشاعر وحنقه على مهجوه فإنهما، من حيث ما يتضمنانه من فكاهة ونكته، ومن حيث اللغة المستخدمة فيهما وهي لغة ألفاظها مستقاة مما هو متداول في أوساط العامة من الناس، يشفان عن انعكاس طوابع المجتمع الأندلسي في شعر الهجاء .

على هذا النحو، يبدو واضحا من خلال النماذج التي عرضناها أن شعر الهجاء في الأندلس يعد شاهدا من الشواهد على التحول الذي عرفه المجتمع الأندلسي، فقد عبر بوضوح عن السمات والخصائص التي جعلت منه مجتمعا ذا شخصية مميزة وأبعد من أن يكون صورة مكررة لمجتمع آخر بما توافر له من عوامل بيئية واجتماعية واقتصادية وثقافية وعلمية كانت وراء النقلة الحضارية التي شهدها حتى أضحى مجتمعا واضح الصورة بين القسمات له هويته التي يتفرد بها عما سواه .

الهوامش :

1 – شابحة حمرون، شعر ابن دراج القسطلي في مدح العامريين، قراءة في المحتوى من خلال حياة الشاعر وبيئته ، رسالة ماجستير مخطوطة بقسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الجزائر 1999 /2000 .ص 13

2 – قدامة بن جعفر، تح : محمد عبد المنعم خفاجي، ط : الأولى، مصر، مكتبة الكليات الأزهرية 1978 ص . 187

3 – أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تح محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة، دار المعارف 1973 ص 296 – 297

4 – أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تح د/ إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة 1966 ص 267 – 262

-5 يحي الغزال، ديوان يحي الغزال، جمع وتحقيق، د/ محمد رضوان الداية، ط : 1، دمشق، دار قتيبة 1982 ص 17

6 – جبرائيل جبور، ابن عبد ربه وعقده، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1933، ص . 84

-7 ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة، ج .س كولان و إ . ليفي بروفنسال، ط . 3، دار الثقافة، بيروت 2، 1983 / 250

8 – أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح، د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1968 ، 3/ 156

9 – راجع مثلا ما ورد بهذا الشأن في نفح الطيب للمقري 3/ 150 – 151 و 156

10 – عمر الدقاق، ملامح الشعر الأندلسي، دار الشرق، بيروت 1975، ص . 45

11 – ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب 2/ 226 – 227

12 – ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب 2 / 227

13 – أبو عبد الله محمد بن عبد الله أبي بكر القاضي المعروف بابن الأبار، الحلة السيراء، تح د . حسين مؤنس، ط 1، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1963، 1 /123

14 – أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ص . 260

15 – أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات، ص . 261

16 – أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات، ص . 260

17 – أبوعبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات، ص . 260

18 – راجع إليا الحاوي ، فن الهجاء وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، (د . ت)، ص . 269

19 – يحيى بن حكم الغزال، ديوان يحيى الغزال، جمع وتحقيق د . محمد رضوان الداية ص . 58

20 – أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات، ص،257

21 – أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب 1 /223 . وهذا الكلام وإن كان غير محدد بفترة معينة فإني لم أجد ما يناقضه .

22 – الأبيات كاملة أوردها أبو حيان التوحيدي في أخلاق الوزيرين، الصاحب بن عباد وابن العميد، تح محمد بن تاويت الطنجي، دمشق . المجمع العلمي (د . ت) . ص . 398 – 399، وأورد ابن الكتاني أربعة منها في كتاب التشبيهات ص . 256

23 – أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب،ص . 255 – 256

24 – أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات،ص.256-255

25 - أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات، ص.259

26 - أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب، كتاب التشبيهات ص.259

27 - أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاية

الأندلس، تح محمد بن تاويت الطنجي،ط:1 مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة 1952،ص،47

28 - يحي بن حكم الغزال، ديوان يحي الغزال، ص 82-81

29 - ابن حيان القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تح، د/ علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973،ص.8

30 - يحي بن حكم الغزال، ديوان يحي الغزال، ص.82-81

31 - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، 3/80

32 - راجع المقري، نفح الطيب، 1/602

33 - ابن حيان، المقتبس، تح، د/ علي مكي،ص.65

34 - ابن حيان، المقتبس، تح، د/ علي مكي، ص.65-64

35 - أورد هذا الخبر والأبيات، ابن حيان القرطبي في المقتبس، تح،د/ علي مكي ص. 65-66

36 - يحي بن حكم الغزال، الديوان، جمع وتحقيق د/ محمد رضوان الداية، ص.19

37 - يحي بن حكم الغزال، الديوان، ص.109

38 - ابن حيان، المقتبس تح، د/ علي مكي،ص.69

39 - ابن حيان المقتبس، تح د/ علي مكي،ص.70

40 - راجع مثلا، ابن حيان، المقتبس، تح د/ علي مكي،ص.58-48

41 - ابن حيان، المقتبس تح، د/ علي مكي ص 175-174

42 - الحميدي، جذوة المقتبس،ص.304

44 - راجع أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ط:7، دار المعارف، مصر 1979 ص 215

45 - ابن عبد ربه، الديوان جمع وتحقيق وشرح د. محمد رضوان الداية،ط.1 مؤسسة الرسالة، بيروت 1979 ص 138

46 - المقري ، نفح الطيب، 3/374

47 - ابن عبد ربه، الديوان، ص 31

48 - نبه جامع شعر ابن عبد ربه الدكتور محمد رضوان الداية إلى أنه يشير إلى قوله تعالى: «..إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب» الحج.73

49 - الحميدي، جذوة المقتبس، تح إبراهيم الأبياري، ط: 2، دار الكتاب اللبناني بيروت 1983،ص.207

50 - ابن عبد ربه، الديوان، ص.24

51 - راجع أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص. 218

52 - ابن حيان، المقتبس، تح د/ علي مكي، ص 58، وقد رجح المحقق أن تكون الأبيات للغزال راجع المقتبس، ص. 58 هامش.2

53 - أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص277 .